15 فرجينيا وولف

«سوف أرسم تويجات منحنية وصدفات، وأشياء نصف شفافة.. وسوف أخط أشكالاً مُدوَّرة من خلالها نرى الضوء غير أنَّها تظلّ غير واضحة المعالم، كل شيء سوف يكون واسعاً وغير واضح، وما نراه، سوف نسمعه أيضاً . أصوات تخرج من هذه التويجة أو من تلك الورقة، أصوات غير منفصلة عن الصورة» .

الروائية الإنجليزية، التى تعتبر رائدة تيار الوعى فى الرواية الوصفية، والأديبة الأكثر سطوة فى القرن العشرين، والتى أخافت بمكانتها الكثير من أدباء عصرها، ومارست هيمنتها على الكثير من الأقلام الجديدة .

يضعها النُّقَّاد على مفترق بين الأديبين البريطانيين الكبيرين : «جورج أورويل»، و«جيمس جويس» .

عانت من مرض عقلى طبع حياتها وإبداعها، وأدى فى نهاية الأمر إلى انتحارها غرقاً !

عن حياتها المثيرة أُلّفت رواية «الساعات» التى تحوَّلت إلى فيلم عالمى، وكتب «إدوارد ألبى» مسرحية: «مَنْ يخاف فرجينيا وولف» .

الميلاد وذكريات الطفولة :

ولدت الروائية الإنجليزية «فرجينيا ليزلى ستيفن» وهذا اسمها الحقيقى، والمشهورة باسم «فرجينيا وولف» نسبة إلى زوجها، فى الخامس والعشرين من يناير عام 1882 م بالعاصمة البريطانية لندن .

تنتسب «فرجينيا» إلى عائلة برجوازية مترفهة، كان جلّ أفرادها مفتونين بالثقافة

والآداب والفنون . ولقد كان أحد أجدادها الأولين مناضلاً من أجل حرية العبيد فى جزر «ألانتى» أمَّا جدها لأبيها فكان أستاذًا فى جامعة كامبريدج .

والدها هو السير «ليزلى ستيفن» الذى كان أبرز الشخصيات الاجتماعية والأدبية فى إنجلترا، كما كان رجلاً مثقفاً مرموقاً يتمتع بمهابة كبيرة بين أبناء جيله . وقد نشأ متحررًا فى أفكاره وتوجهاته الدينية والسياسية وقريباً من الاشتراكيين الذين أسسوا حزب العمال . وكانت لديه العديد من المؤلفات منها : «تاريخ الفكر الإنجليزى فى القرن الثامن عشر»، و «الأدب والمجتمع الإنجليزى فى القرن الثامن عشر» . كما اشترك فى تحرير «معجم السير القومية» . وتسلم إدارة تحرير مجلة «كورنهيل ماجازين» ليكتب عشرات المقالات الأدبية والفلسفية.

تزوج للمرَّة الأولى من امرأة توفيت بعد أن أنجب منها ابنته «لورا» عام 1870م، ثم تزوج من صديقتها فى عام 1878 م ، وكانت أرملة أنجب منها : «فاينسا»، و «توبى»، و «فرجينيا»»، و «أدريان» .

كانت «فرجينيا» تحظى برعاية والدها الذى كان يشجعها على قراءة ما يعجبها من الكتب التى كانت تمتلئ بها المكتبة العائلية الواسعة . وقد ترك تأثيرًا كبيرًا فى شخصيتها، فهى التى ورثت عنه الميل إلى الأدب .

وممَّا يؤخذ على هذا الأب أنَّه كان رجلاً صارماً وقاسياً، مشغولاً دوماً بأعماله الفكرية. وعندما تقدم به العُمْر، وأصيب بمرض السرطان، احتد طبعه، وأصبح غير محتمل بالنسبة لـ «فرجينيا»، التى كانت تُعانى هى الأخرى من متاعب نفسية مزمنة لذلك سوف تكتب عنه فيما بعد فى مذكراتها تقول : «اليوم عيد ميلاد والدى . لو ظلّ على قيد الحياة لكان عُمْره الآن 96 عاماً، نعم 96 عاماً تماماً، مثل كثيرين أعرفهم . لكن بفضل الله لم يبلغ هذا العُمْر ولو بلغه لحطمت حياته حياتى . وما الذى كان يحدث ؟ لا كتابة، لا كتب . شىء لا يمكن قبوله مطلقاً».

أمَّا أمُّها فتدعى «جوليا جاكسون داكوورث» من نسل عائلة اشتهرت بالطباعة والنشر. وكانت مثل بقية أفراد عائلتها التى لها جذور فرنسية، تعشق الفنون التشكيلية.

ولقد كانت فائقة الجمال وبالغة اللطف، حتى يُقال أن بعضاً من أشهر الرسّامين وقتها أعجبوا بها فقاموا برسم بورتريهات لها.

إذاً، نشأت «فرجينيا» فى جو أدبى ثقافى هيأ المناخ لتنمية مواهبها، وممَّا يذكره بعض المؤرخين أنَّها لم تتعلَّم الكلام إلاَّ فى سن الثالثة من عُمْرها ، ولكن عندما نطق لسانها بالكلام أصبحت الكلمات أسلحتها المفضلة التى رفعتها إلى مصاف كبار الأدباء .

أمضت «فرجينيا» أوقاتاً سعيدة فى طفولتها فى مدينة «سانت إيفز» الساحلية حيث أحاط بها البحر والأمواج والفراشات والأسماك، وسوف تحاول «فرجينيا» أن ترسم بدقة وبألوان الفرشاة شخصياتها الروائية، وسوف تكتب عن البيت الواقع على شاطئ البحر والذى كانت تقضى فيها العائلة فصل الصيف .

فرجينيا وولف .. لم تتلق تعليماً نظامياً فى مدارس أو جامعات!!

وفق عادة تلك الأيام التى عاشت فيها «فرجينيا وولف» تلقت تعليمها فى المنزل بحى هايد بارك، حيث علَّمتها أمَّها اللغة اللاتينية والفرنسية بالإضافة إلى التاريخ، بينما علَّمها والدها الرياضيات والموسيقى والرسم وقواعد الإتيكيت، كما اعتمدت على مكتبة أبيها الضخمة لتحصيل المعرفة .

ولمَّا بلغت «فرجينيا» مرحلة الدراسة الجامعية لم تلقى قبولاً لكونها فتاة، فجامعة كامبريدج لم تكن بعد قد فتحت أبوابها لتعليم الفتيات، بينما تم قبول أخيها و «فرجينيا» لم تنس فى حياتها هذا الموقف .

ومن المفارقات أنَّها فى وقت لاحق قامت بالتدريس فى تلك الجامعة كتحدٍ، وكى تمهد الطريق وتقدم معارفها لبنات جنسها فى تلك المرحلة المبكرة من النهضة النسائية، غير أنَّها لما اشتهرت فيما بعد وصارت موضع اهتمام واحترام المجتمع الإنجليزى بأسره، أرادت جامعة كامبريدج نفسها أن تمنحها درجة الدكتوراه الفخرية فرفضتها كنوع من الاحتجاج، لأنَّها كانت ما تزال متأثرة بموقف الجامعة السابق منها !!

بدايات الموهبة :

الكتابة كانت ملجأ «فرجينيا» الوحيدة منذ الطفولة، ولعلَّها بذلك كانت تقلد

والدها، الذى كان كاتباً ومؤرخاً . وممَّا يُذكر عن حياة «فرجينيا» أنَّه فى عام 1891م وكان عُمْرها آنذاك تسع سنوات ساهمت مع أشقائها فى عمل جريدة عائلية . حيث كانت تقلد أفخم الأساليب الأدبية فى سرد أخبار العائلة وكل ما يدور من أحداث محيطة بها لتكتبها فى تلك الجريدة .

«فرجينيا وولف» .. فى رحاب الصالونات والجماعات الأدبية :

اعتبر النُّقَّاد طفولة «فرجينيا وولف» مخزوناً ثرياً لموهبتها التى تدفقت بعد ذلك فى أعمالها الروائية، حيث تبدو التفاصيل والذكريات واضحة وكأنها تستعيد تلك الطفولة المليئة بشتى المشاعر المتناقضة فى بيتها، فنجدها تتأمَّل هذا التزاحم بين ضيوف الأسرة من أولاد الأعمام والخالات تستمع إلى أحاديثهم وتنشغل بقصص حياتهم فتكوِّن مخزوناً إنسانياً رائعاً، هذا المناخ الذى تختلط فيه دماء النبلاء بدماء الطبقة المثقفة الراقية فى مجتمع لندن ؛ فقد كان لوالدها السير «ليزلى ستيفن» صالون أدبى وثقافى حيث التقى أولاده مع أبناء جيلهم من طلاب جامعة كمبريدج . وضم هذا الصالون أسماء سوف تتألق وتشكِّل علامات فارقة فى الثقافة الإنجليزية، وها هى «فرجينيا» تلتقى بدوقة «بيد فورد» وهى ابنة عمة أمِّها، والمفكر «سويفت» صديق الأسرة وكذلك بـ «روبرت بروك» والذى أصبح فيما بعد من أشهر شعراء انجلترا .

وبعد وفاة والدها اشترت «فرجينيا» بما ورثته منزلاً فى حى «بلو مزبرى» Bloomsbury وهو حى فى مدينة لندن تقطنه جماعة من الأدباء والفنانين اتخذت اسم هذا الحى اسماً لهذه الجماعة بحيث أصبحت لها شهرة كبيرة فى الأدب الإنجليزى الحديث . وخلال سنوات نشاط هذه الجماعة التقت «فرجينيا» بكُتَّاب كبار أمثال : «ليثون ستراشى»، و «مينارد كينيس» إلى جانب نُقَّاد على غرار «كليف بيل» و «ديسموند ماكارثى» .

كانت «فرجينيا» فى البداية تجلس صامتة وتستمع إلى أهم رجالات الفكر والأدب فى انجلترا وهم يطرحون مشكلات الساعة ويقرأون روائع الأدب الروسى وأفكار الفلسفة الألمانية ويكشفون عن ميول اشتراكية ونزعات متحررة أو متشككة .

كما يذكر أن «فرجينيا وولف» احترفت الكتابة لملحق التايمز الأدبى Times literary Supplement .

الاضطرابات النفسية والعصبية التى أصابت «فرجينيا وولف»:

المتتبع لسيرة «فرجينيا وولف» يجد أنَّها منذ البداية كانت طفلة صعبة المراس، مهددة منذ اللحظة الأولى بالانهيار النفسى حيث يظهر عليها الغضب ويحتقن وجهها، وتهتز عصبياً بصورة عنيفة، وقد ظهرت هذه الأعراض على شكل موجات فى سنوات طفولتها وشبابها . وقد أرجع الأطباء هذا الداء النفسى لأسباب وراثية خالصة، وأن شقيقتها الكبرى من أبيها ولدت بداء التخلُّف العقلى.

و «فرجينيا وولف» لا تذكر تفاصيل تلك النوبات النفسية فى مذكراتها فهى لا تتعرَّض لذكر أعراض الجنون أو حالة الانهيار العقلى، لكنها تذكر فقط الأعراض الجسدية التى تصاحب تلك الحالة من ضعفٍ جسدى وآلام فى المفاصل أو آلام الأذن حيث تشير إلى تلك الأصوات الرهيبة التى تسمعها وتتذكرها بعد الشفاء.

كان الموت هو أحد أهم الأسباب التى أدت إلى تدهور حياة «فرجينيا وولف» النفسية والعصبية، ففى عام 1891م أُصيب ابن عمَّها فى حادثة أثَّرت على قواه العقلية وأخذت تصرُّفاته تُقلق الأسرة وتُهدِّد حياة كل من فيها، بعدها لزم الفراش مُعاقاً .

وفى عام 1895م وكانت «فرجينيا» آنذاك فى الثالثة عشر من عُمْرها بدأ الموت يرسم ظلاله السوداء على حياتها، فقد توفيت أمَّها منهارة تحت أعباء العائلة الكبيرة، فجاء الغياب ليُلقى «فرجينيا» فى الحزن الشديد ممَّا أدى إلى إصابتها بهزة نفسية عنيفة لدرجة أثَّرت فيما بعد على سلوكها النفسى فى سنوات شبابها حتى بعد أن تماثلت للشفاء إنما ظلّ شبح تلك الهزة النفسية التى واتتها وهى فى الثالثة عشرة من عُمْرها جاثماً على روحها خوفًا من أن يحدث انهيار آخر يدفعها من جديد لنوبات الجنون!!

وفيما بعد كتبت فى مذكراتها تقول : «أذكر أننى تركت فراش والدتى بعد أن توفيت، والذى أخذتنا إليه «ستيلاب» وقد ضحكت فى السرّ ساخرة من دموع الممرضة، وكنت

أقول فى نفسى : إنَّها تتظاهر .. كنت فى الثالثة عشر من عُمْرى.. وكنت أخشى ألاَّ أتألم بقدرٍ كاف.

وقد كان لأمّها بنت من زوج سابق هى «ستيلا» والتى نهضت بتحمُّل المسؤولية العائلية لكنها تزوجت وأُصيبت بمرضٍ صحى قضى عليها وذلك فى عام 1897م، فشكَّل موتها صدمة عنيفة أُخرى بالنسبة للفتاة الصغيرة .

وفى عام 1888 م تدهورت صحّة والدها ولزم الفراش إثر إصابته بمرض السرطان حتى توفى فى عام 1904م . ولقد حاولت «فرجينيا» الانتحار للمرَّة الأولى فى حياتها بإلقاء نفسها من النافذة إثر نوبة عصبية حادة ألمت بها لكنها نجت من الموت بمعجزة .

كانت «فرجينيا» تنام فى فراشها وهى تستمع إلى طيور تغنى باليونانية، وترى الملك «إدوارد السابع» مختفياً فى نبات صحراوى وهو يسبُّ ويلعن بلغةٍ سوقية، وظلت إصابتها بهذه الحالة طوال صيف عام 1904م .

وكان التحرُّش الجنسى الذى تعرَّضت له «فرجينيا وولف» وهى فى السادسة من عُمْرها من قِبل أخيها غير الشقيق «جيرالد داكوورث» سبباً آخر من أسباب اضطرابها النفسى والعصبى، كما أنَّه يُفسِّر برودة علاقتها مع الرجال فيما بعد وميلها إلى النساء، أيضاً فإن هذا الحادث أفسد حياتها العاطفية قبل أن تبدأ .

ولا شك، فإن معايشة «فرجينيا وولف» للحرب العالمية الأولى والثانية كان لهما تأثيرهما الكبير على تحطيم صحتها وروحها المعنوية، فمع اندلاع الحرب العالمية الأولى تُصاب باضطرابات نفسية، فهى تعجز عن تحمُّل القصف الليلى والغارات المكثفة والعزلة التى نشأت فى المجتمع البريطانى نتيجة الحرب وانشغال الناس فى إعداد الملاجئ، تؤرقها فكرة الموت جرَّاء قصف القنابل، وإنها قد لا تنجو من مآسى تلك المحنة .

وحينما اندلعت الحرب العالمية الثانية ازدادت أوضاع «فرجينيا» النفسية سوءاً .

وإذا ما عدنا لتتبع تطورات الحالة النفسية لـ «فرجينيا وولف»، فنجدها فى عام 1911 م تُعانى من كونها ما زالت فتاة غير متزوجة لذا تكتب إلى أختها «فاينسا»:

«لم أستطع الكتابة، وخرجت كل الشياطين السوداء كثيفة الشعر .. ها أنا فى التاسعة والعشرين دون زواج، مثال للفشل، دون أطفال، مجنونة أيضاً، لا أُجيد الكتابة» .

وبعد زواجها فى عام 1912 م اعتقد الجميع أن زوجها قادر على أن يُعيد إليها أنوثتها وثقتها بنفسها، ولكن هذا الأمل تبدد، فقد كانت تبغض حب التملُّك وحب السيطرة فى الرجال، كما تكره فيهم صفة الفحولة فساءت صحتها واشتدت فيها النزعة الانتحارية فتناولت مئة حبة من حبوب الفيرونال لتقضى على حياتها . وحاول زوجها علاجها عن طريق الراحة والاسترخاء وتجنب الإثارة الذهنية، وبعد تحسُّن نسبى يعاودها الصداع وتدخل إحدى المصحات عام 1915 م مُصابة بجنون الثرثرة والتشوش الذهنى والاستمرار فى الكلام دون توقف حتى تسقط مغشياً عليها وتظل فى غيبوبة مدة طويلة .

لقد اختار المؤرخون فى حالة «فرجينيا وولف» التى تتباين بين نوبات الجنون ونوبات اليقظة التى تدفعها إلى عالم الخيال فتبدع نوعًا خاصاً من الأدب يضعها فى مصاف أهم مبدعى القرن العشرين من خلال مجموعة الروايات التى كتبتها . ونظراً لأنّ الطب النفسى لم يكن قد تطورَّ فى تحليله بالصورة التى هى عليه الآن إلاَّ أنّ نُقَّاد الأدب من المحللين النفسيين الذين عكفوا على دراسة أعمالها وتحليلها وفقًا لسيرتها الذاتية وحالتها النفسية عن كل مرحلة من مراحل إبداعها أكَّدوا أن هذا النوع من الإبداع الفريد يمكن أن يوصف بأنَّه السكون أو الهدوء أو الصفاء الذى يعقب العاصفة حيث يتألق ذهن الكاتبة بعد انتهاء حالة الجنون التى تقع فيها وتعود للحياة مرَّة أخرى كأن العقل يستعيد صفاءه ونقاءه بعد الشفاء .

زواج «فرجينيا وولف» الناجح .. وتأسيس المطبعة ودار النشر:

تزوجت «فرجينيا وولف» من المنظِّر السياسى والكاتب الصحفى «ليونارد وولف» التى حملت اسمه عام 1912م، وذلك بعد أن أُعجب بها عند عودته من سيلان «سريلانكا الآن» بعد أن خدم بها فى إحدى إداراتها . وإثر زواجهما اكتشفا أن كلاً منهما يكمل الآخر .

ولا شك أن هذا الزواج العقلانى الهادىء لعب دوراً مهماً فى حياتها، حيث احتضن قلقها بحنان بالغ، وساندها فى محنها التى مرَّت بها، واهتم بها دونما شكوى، واعتنى بها عناية كبيرة أثناء مرضها النفسى.

وفى عام 1917م دشنت «فرجينيا» مع زوجها «ليونارد» مطبعة ودار نشر صغيرة هى «هوجارت برس» تلك الدار التى بدأت بمطبعة صغيرة يمكن وضعها على طاولة.

وسرعان ما نمت تلك الدار ليصبح لها شأن فى عالم الأدب. والدار لم تستمد شعبيتها من الشارع والفئات العمالية والطبقة الوسطى وإنما من الفئة المثقفة فى بريطانيا.

كان هدف المطبعة والدار نشر الجديد من إنتاج الشباب ممَّن لم تكن أسماؤهم قد اشتهرت بعد. وبمرور الوقت حققت الدار درجة من الربح كفلت لها ولزوجها درجة من الاستقرار المادى من ناحية، وأتاح لأصحابها تكريس جهودهم للكتابة فلم يقاسوا ما قاسى غيرهم من اضطرارهم إلى التكسُّب من أعمال أخرى.

من أهم الأعمال التى نشرتها الدار ديوان «الأرض الخراب» عام 1922م للشاعر «ت. س إليوت»، ورائعة «كاترين مانسفيلد» «استهلال» وأعمال أُخرى مهمة لعددٍ من الكُتَّاب المشهرين.

وكانت «فرجينيا وولف» هى المكلفة بقراءة المخطوطات، وعن هذه الدار صدرت كل أعمالها.

«فرجينيا وولف».. نشاطها وسماتها:

وزعت مشاغلها وأوقاتها بين إدارة دار نشرها وبين نشاطاتها النقدية مع مراسليها لكبريات الصحف البريطانية، إضافة لكتابتها الرواية والقصص القصيرة، ولم يمنعها ذلك من السفر والترحال وزيارة الشواطئ مثل شبه جزيرة «كورنواى» جنوب إنجلترا.

وابتداء من عام 1916 م وعلى مدى ثلاث سنوات دأبت «فرجينيا» على إلقاء محاضرات فى بيتها مخصصة لنساء العمال. وفى محاضراتها هذه تطرَّقت إلى موضوعات مختلفة ومتنوعة تتصل بالتربية الجنسية وبالعلاقات الزوجية وبدور المرأة فى المجتمع.

أمَّا عن سماتها فهى كانت شديدة الرقة والتأثُّر منذ طفولتها وقد بدت غريبة الأطوار. شديدة الحساسية والعصبية . وكانت دائماً تخشى الكوارث، والكوارث - بكل أسف- كانت تزورها !!

الانتهاء من العمل الروائى كان مخيفاً بالنسبة لها، ويصيبها بحالاتٍ من الاكتئاب المرضى، لقد كانت تغرق فى عملها الأدبى، وكل هواياتها كانت مرتبطة بالكتب والكتابة . الكراهية والحب والخوف والسخرية والانضباط كسيدةٍ من طبقة راقية فى بريطانيا لازمها طوال الوقت .

وفى كتاب صدر حديثاً عن «فرجينيا وولف» بعنوان : «امرأة من كلمات» تأليف: «فيليس روز» جاء الوصف التالى لها : «بالرغم من أن الصور الفوتوغرافية كانت تبدى فرجينيا كامرأة أنيقة، وذات جاذبية وذكاء، إلاَّ أن فرجينيا، كانت تشعر، دائماً، أنَّها امرأة مهملة وغير جذابة . إنَّها لم تكن مرتاحة فى الحياة، لم تكن تستطيع ممارسة الأشياء العادية البسيطة فى الحياة كالذهاب إلى سوبر ماركت أو التبضع لاحتياجاتها الخاصة، وهى أيضاً فى كل المهام الصغيرة كانت تعتقد أنَّها تقلد ما لا يمثلها، وهو إنَّها امرأة» .

وجودها الجسدى كان، دائماً، مفاجأة لها، وليست دائماً مفاجأة سعيدة، فعلى حد تعبير الأديبة «ظبية خميس» : كانت امرأة متعطشة، عاطفية، تبدو قاسية وبعيدة عن الآخرين، وذات علاقة خاصة بالأطفال عبر عالمها الخيالى والمتفجر دائماً.

و «فرجينيا وولف» لم تكن تلك المرأة المسترجلة حسبما يعتقد البعض، لقد كانت على قدر ظاهر من الجمال لا سيما قبل أن تشتد وطأة آلامها النفسية، ولكنها لم تتصرَّف فى الحياة على أساس أنَّها جميلة . لم تبرز هذا الجمال الرقيق المؤثِّر، بل اتجه اهتمامها إلى جمال حسها الفنى وإلى إنتاجها الأدبى . رأت الجمال خاصة فى ما تقدمه الطبيعة لنظرها ويقدمه الأدب لذوقها .

وصفها صديقها «ليتون استراجى» فى مذكراته «بأنَّها المرأة الحلم، التى تظل تقبع فى دمك حتى آخر لحظة، فهى مزيج من الأنوثة العاتية، والجنون الجميل، والقوّة الرجولية الفيّاضة» .

كانت «فرجينيا وولف» حساسة جدًّا تجاه الآخرين، ولكنها عاشت دائماً، وكأنَّها خارج الدائرة، كان لديها فضول جبار حول الآخرين، وعجز رهيب فى التواصل معهم مباشرة .

كانت الطبيعة عندها بعداً من أبعاد الإنسان، كان امتداداً للإنسان لا مُجرَّد ديكور، لذلك نجدها فى رواياتها تتحرَّك باستمرار من الخارج إلى الداخل، والعكس، تصف المشاهد الطبيعية وتنتقل إلى المناظر والفضاءات، تتكلم على الامتدادات التى تنحدر صوب البحر، على الغابات والغسق وصوت المطر على الزجاج، على سماء ترتعش بالغيوم، وعلى الضباب الذى يلف الأشياء .

العلاقة الشائكة بين «فرجينيا وولف» ومعاصريها من الأدباء !

يُقال إن الغرور الشخصى منعها من ملاحظة عظمة الزمن الأدبى الذى عايشته «فرجينيا وولف»، ويؤكِّد البعض أن الأدباء الذين عاصرتهم كانوا يمثلون بالنسبة لها تهديداً ومنافسة حقيقية!!

على أية حال كانت أحكامها غير جيدة على معاصريها من الكُتَّاب والأدباء، فهى لم تتنبه إلى قيمة معاصريها لأنَّ الكُتَّاب البارزين من وجهة نظرها هم أولئك الذين كانوا يتناولون الشاى مع والدها فى صالونهم الأدبى عندما كانت طفلة !!

ولأنَّها كانت تتحمَّل مسؤولية قراءة النصوص المقدمة لها لكى تنشرها فى دارها فقد نشرت أعمالاً لـ «كاترين مانسفيلد» و «مكسيم جوركى» وآخرين غيرهم، غير أنَّها رفضت نشر رائعة «جيمس جويس» «أوليسيس»، وفى رسالة لها بتاريخ 23 أبريل 1918 م وفيها تستعرض الأسباب التى دفعتها إلى رفض الرواية المذكورة، كتبت «فرجينيا» تقول: «لقد طُلب منا نشر الرواية الجديدة للسيد جويس . الحقيقة أن كل الناشرين فى لندن وأيضاً فى الأقاليم رفضوا نشرها .. هناك كلب يتبوَّل، وهناك رجل يتيه فى المدينة على غير هدى، والشىء الذى يمكن ملاحظته هو أن هناك رتابة . ثم إننى أعتقد أن طريقته التى جاءت متقنة للغاية لا تقودنا فى نهاية المطاف إلاَّ إلى حذف التفاسير، وإضافة أفكار بين معقفين . لذلك أنا أعتقد أننا لن نقوم بنشرها» .

والحقيقة أن «فرجينيا» لم تكن قاسية فقط مع «جيمس جويس» الذى كان بالتأكيد يفوقها موهبة، بل مع آخرين من كبار كُتَّاب عصرها، وكانت تنتقدهم بنوع من الحدة التى تشى بغيرتها منهم، فقد كانت تعتبر البعض من روايات «جوزيف كونراد» البولندى الأصل، الإنجليزى اللغة، «ميلودرامات سخيفة» وكانت تقول بأنَّه يكتب بلغة إنجليزية ركيكة، بل إنّها اتهمته ذات مرَّة فى مذكراتها بأنَّه متزوج من «امرأة بليدة وثقيلة الدم» !!

وفى العديد من المقالات التى نشرتها فى الصحف البريطانية هاجمت «د. هـ. لورانس» واعتبرت رواياته سطحية وخالية من أى جديد.

إبداع «فرجينيا وولف» الروائى :

تركت «فرجينيا وولف» وراءها خمس عشرة رواية وعدداً من الكتب النقدية، وسيرتين لاثنين من معاصريها، وستة وعشرين مجلداً من المذكرات، فضلاً عن المراسلات .

رواية : الرحلة البحرية إلى الخارج :

قصة فتاة تقع فى الحب، لكنَّها تموت قبل تحقيق أحلامها !

بدأت «فرجينيا وولف» كتابة هذه الرواية عام 1908م ولكنها لم تنته من كتابتها إلاَّ بعد سبع سنوات حيث نشرت عام 1915م، وفور صدورها أدرك الناس أن هذه الرواية هى عمل مرموق ، مع أنَّها رواية تقليدية من حيث الحبكة ورسم الشخصيات، فهى قصة فتاة بسيطة حد السذاجة تقع فى الحبّ، لكنها تموت بعد إصابتها بالحمى وقبل أن تحقق أحلامها . والفكرة المحورية لهذه الرواية تدور حول أسرار الحياة والموت !!

رواية : ليلاً ونهاراً :

رواية ترصد عالم المتناقضات :

وهى الرواية التى صدرت عام 1920م، وهى رواية واقعية تدور أحداثها فى لندن،

وترصد فيها الروائية حياة التناقض بين صديقتين تدعيان «كاترين و «مارى»، وكيف تتعامل كل منهما مع مدينة لندن «مدينة الضباب» .

رواية غرفة يعقوب :

قصة تصور حياة شاب عبر مراحل حياته المختلفة، وفشله فى قصة الحب التى عاشها من طرف واحد، ثم موته المُفاجئ فى الحرب!!

فى عام 1919 م شرعت «فرجينيا وولف» فى كتابة رواية جديدة تحت عنوان «غرفة يعقوب» أثناء كتابتها لهذه الرواية، التى سوف تكون علامة بارزة فى مسيرتها الأدبية، اصطدمت بكثير من العراقيل، وبين وقت وآخر كانت تنتابها حالات من الإحباط والعجز، وفى مذكراتها بتاريخ 18 أبريل 1921م كتبت تقول : «إننى بصدد كتابة غرفة يعقوب لكن ليس باستطاعتى أن أتقدم .. والحقيقة أننى كاتبة فاشلة، وأنا عجوز تجاوزتها الأحداث، وعاجزة عن أى تطور» !!

لكن الرواية صدرت فى عام 1922م . يقول بعض النُقَّاد أن الرواية مستوحاة من حياة وموت شقيقها الحبيب إلى قلبها «توبى» . عموماً نحن نرى أثر «جيمس جويس» واضحاً فى الرواية، فهى تحاول أن تقدم عن طريق الأسلوب التصويرى شخصية شاب إنجليزى منذ طفولته حتى يُقتل فى الحرب فى سن السادسة والعشرين . وتتابع «فرجينيا» تجاربه فى لمحات خاطفة أو لوحات انطباعية سريعة لا تسلسل فيها ولا استمرار، لكنَّها شذرات وأشتات من أفكار وانطباعاته أشبه بالأسلوب السينمائى، إذ تظهر الصورة أو اللقطة ثم تختفى شيئاً فشيئاً لتحلّ محلها لقطة أخرى . والرابطة الوحيدة بين هذه الصور هو المؤلفة نفسها التى تتحكَّم فى حركة المد والجزر وأحياناً تزول الصورة بسرعة قبل أن نتأملها ويصبح من الصعب إدراك ملامحها قبل الانتقال إلى صورة أخرى، ويمكن تلخيص القصة فى مرحلة الطفولة، ثم أيام الدراسة حيث بطلها يدرس فى كمبريدج، والنساء اللاتى أحببنه، ثم حبه للفتاة «فورندا» التى لم تخلص له الحبَّ ممَّا أصابه بخيبة أمل حوَّلت مدينة لندن أمامه إلى كابوس مزعج تبدو فيه البلابل وكأنَّها صقور جارحة، ثم موته المفاجئ فى الحرب.

رواية : السيدة دالواى :

تصف رحلة يوم واحد من الصباح حتى المساء، حيث ترتب البطلة لحفل المساء، بينما تستدعى كامل حياتها منذ الطفولة حتى عُمْرها الحالى وهى فى الخمسين.

صدرت رواية «السيدة دالواى» Mrs Dalloway عام 1925م وقد حققت لـ «فرجينيا وولف» شهرة لم تحققها أى واحدة من رواياتها السابقة . الرواية عبارة عن شبكة جبارة شديدة الاشتباك والتعقيد من أفكار مجموعة من البشر خلال يوم واحد من حياتهم، ثمة حدث واحد وبسيط وراءه حركة شديدة التسارع والديناميكية من الحاضر إلى الماضى ثم إلى الحاضر ثانية من خلال ذاكرة الشخوص المحورية .

ويرى النُّقَّاد أن هذه الرواية فيها تشابه مع رواية «يوليسيس» للكتاب الكبير «جيمس جويس» الذى كان قد رسم حياة مدينة دبلن من خلال بعض الشخوص فى يوم واحد هو يوم الخميس 16 يونيو عام 1904 .

أمَّا عن ملخص الرواية : خلال نهار مشمس وصباح من أيام يونيو حين تخرج «كلاريس دالواى» من مسكنها وتتوجه إلى السوق لشراء أزهار تزين بها منزلها استعداداً للحفل الذى سيقام فى الدار مساءً، تستغل المناسبة لتقوم بجولة فى أحياء لندن .. ترافق الأديبة بطلتها فى أنحاء متفرقة من العاصمة البريطانية، تسجل المشاهدات التى تقع تحت أنظارها خلال تلك الجولة والمشاعر التى تنتاب «كلاريس» بعد ظهر ذلك اليوم غير الممطر من الأيام النادرة فى مدينة الضباب . تلتقط آنذاك مخيلة السيدة «دالواى» صورة «بيتر والش» صديق طفولتها وطالما حلمت بالزواج منه . وها هو يعود من الهند كما تُردد أروقة صالونات لندن .. تستعيد «كلاريس» ذكريات المراهقة فى منزل والديها وصخب أولاد الجيران، ورفاق المدرسة، ولكن ذلك لا يمنعها من متابعة ما يجرى فى السوق من حركة شراء وبيع، فـ«كلاريس» تحب الحياة فى تقلباتها ومتغيراتها، وليتابع السرد الروائى ترحاله بين الماضى والحاضر : ذكريات الطفولة والمستجدات الطارئة على الأحياء التى تعبرها السيدة «دالواى»، فها هى تراقب حركة السير التى ينظمها الشرطى قبل أن تجتاز الطريق المؤدى إلى المحال التجارية حيث لا تتوقف عملية المفاصلة

والحوار بين الباعة والزبائن على امتداد النهار، هذا فى حين تعبر سيارة مسدلة الستائر، الشارع المزدحم بالمارة يدفع «كلاريس» للتساؤل : هل هذه السيارة لفرد من أفراد الأسرة الملكية ؟. تصل «كلاريس» إلى حديقة «كينسيجتون» لتصدم بزوجين أصابها الهلع لدى رؤيتها . تقفز فى تلك اللَّحظة إلى مخيلتها مقتطفات من حياة هذا الرجل ويُدعى «سيبتيموس وورن سميث» وزوجته الإيطالية «لوكريزيا»، وكان الشاب قد شارك فى الحرب العالمية الأولى بحماس واندفاع قبل أن يعود إلى وطنه إثر إصابته بانهيار أعصاب وخيبة أمل ليبدو لمعارفه غريب الأطوار ينظر إلى مَنْ حوله من خلال زجاج نافذة مُغبرة . أمَّا «لوكريزيا» - وتعمل مصممة أزياء - فحاولت بشتى الوسائل إنقاذه من صدمة أودت به إلى حافة الجنون . وسرعان ما تستأنف «كلاريس» جولتها قبل أن تطوى رحالها وتتجه إلى منزلها وقد تلاطمت المشاهد فى مخيلتها : صور الحرب ومآسيها من جهةٍ والحياة فى استمرارها اليومى عبر نبض الشارع من جهةٍ أخرى . تبدأ السيدة «دالواى» إعداد المنزل وترتيبه للمناسبة السعيدة وهى مستغرقة فى أفكارها حين يطل السيد «بيتر» صديق الطفولة . فتهتز مشاعر «كلاريس» لدى رؤيتها الرجل عندما تدخل ابنتها «إليزابيث» وهى فتاة ذكية وجميلة فتنقذ الموقف وتدفع «بيتر» للانصراف. وتعتبر الحسناء «إليزابيث» الشاغل الأول لوالدتها التى تتساءل كيف تقيم فتاتها علاقة صداقة مع الآنسة «كيلمان» المثقفة التى لم تتزوج لإيمانها بأن الله اصطفاها للتعبُّد والتصوف؟ وترى فيها «كلاريس» المُحرِّض الأول على انصراف ابنتها عن حياة الترف لاعتناق حياة النسك والتواضع . ورغم متابعتها لأعمالها المنزلية إلاَّ أن السيدة «دالواى» تسيطر بأفكارها وتحركاتها على الشخصيات التى تحوم حولها مع حلول العصر واقتراب موعد الحفل المسائى . فها هو «بيتر» الذى عاش فى جوهرة التاج البريطانى (الهند) ينغمس فى أجواء لندن حيث ذكريات الحبيبة لا تزال تؤجج نيران عشقه المكبوت، فهو يحسد زوج «كلاريس» المدعو «ريتشارد دالواى» على سعادته قرب هذه المرأة متعددة المواهب. وكان «ريتشارد» فى تلك الساعة يُشارك فى اجتماع سياسى لدى «ليدى بروتون» وما إن يخرج من منزلها

حتى يشترى لزوجته باقة من الزهور يُعبِّر لها عمَّا يخبئه فى قلبه من حب وإعجاب بشخصها . وفى تلك الأثناء تذهب «إليزابيث» برفقة صديقتها إلى مخزن كبير لشراء هدية لوالدتها على هامش الاحتفال الذى ينتظره الجميع . وما أن تزف الساعة حتى يطرق «بيتر» باب دار حبيبته السابقة . ليخبرها أنَّه اليوم صديق أسرتها ليس إلاَّ، يتعرَّف خلال تلك الزيارة على «سالى سيتون» زميلتها فى المدرسة التى اقترنت بتاجر من مانشستر وأصبحت أمّاً لخمسة أطفال، فيجلس بالقرب من «ريتشارد» ويحادثه فى شؤون المستعمرة البريطانية : الهند . حين تدخل «ليدى بروتون» برفقة «إليزابيث» وطبيب الأسرة الذى يُخبر المجتمعين بنبأ انتحار «سيبتيموس» بعد أن فشل هذا الأخير فى استعادة توازنه الطبيعى . يستيقظ الجميع من أحلام يقظتهم فيعمدون إلى تقديم الشكر للسيدة «دالواى» التى منحتهم فرصة الشعور بالسعادة.. وتنتهى الرواية .

رواية : رواية لم تكتب بعد :

ترصد الكاتبة كل الرؤى الممكنة لخلق نسيج درامى معتمدة على مراقبة سيدة تجلس أمامها فى إحدى كبائن القطار .

صدرت الرواية فى عام 1926 م حيث ترصد «فرجينيا وولف» حالات التخلُّق الذهنى لجنين رواية عن طريق أخذ القارىء عبر بدايات رواية لم تكتمل بعد راصدة كيف يمكن أن تكتمل على أنحاء متباينة . تتحرَّك القصة أماماً وخلفاً بين حائطين من الخيال والواقع كلٌ يساهم فى احتماليات الرواية ليحفر نهراً من الاقتراحات البديلة، كل هذا يتم فى ذهن الراوية التى تختبر كل الرؤى الممكنة المعتمدة على مراقبتها شخصية امرأة مُعيَّنة تجلس أمامها فى إحدى كبائن القطار.

على الجانب الآخر، ترصد الكلمات الفعلية والإيماءات التى يأتى بها راكبو نفس الكابينة ومن ثمّ ترسم - ذهنياً - اقتراحات متخيلة لكل منهم عبر خلق روائى تمّ من خلال الملاحظة، التقمُّص العاطفى، وتجسيد ما تشاهده ليتفق ذهنياً ونفسياً مع تلك التداعيات .

ترسم «فرجينيا» عملية الخلق الإبداعى كتجربة متكاملة، بدايات خاطئة يتم استبدالها تصحيح النغمة ودرجة التماسك الدرامى، فمثلاً لابد أن تجد الرواية جريمة متخيلة ارتكبتها البطلة «مينى مارش» لتتفق وحالة الأسى المرسومة على وجهها . ولا تغفل الكاتبة حساب الراوية ذاتها كقوة دافعة فى العمل بالرغم من محاولة التعالى فوق الحدث .

رواية : الطريق إلى المنار :

رواية ذات بناء ثلاثى الأبعاد : النافذة، والزمان يمضى، والمنار الذى يرمز إلى دلالات شتى .

صدرت فى عام 1927م، وتعتبر من أنجح رواياتها . ومسرح الأحداث الروائية جزيرة نائية فى الاهبريدز، وهى مجموعة من الجزر يبلغ عددها خمسمائة جزيرة على مسافة من الشاطئ الغربى لاسكتلندا . أمَّا زمن الأحداث فهو يوم من أيام شهر سبتمبر قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى ببضع سنوات . والشخصيات الروائية هم مستر «رامزاى» أستاذ الفلسفة وزوجته وأولاده مع بعض الضيوف الذين يقضون الإجازة . ومن بين هؤلاء الضيوف فنانة اسمها «ليلى بريسكو» التى تحاول طوال حياتها أن تدرك معنى الحقيقة، لتترجمها إلى ألوان وأشكال على لوحاتها، وحين نلتقى بها ندرك أن محاولاتها قد فشلت .

وتقع الرواية فى ثلاثة أجزاء رئيسة لأسمائها أبعاد ذات مغزى : النافذة، والزمان يمضى، والجزء الثالث والأخير «المنار»، الذى يرمز للأمان والطمأنينة والكشف والنور وسط الظلمة، وهو إلى جانب ذلك قلعة مرتفعة صامدة وسط خضم من الأمواج المتلاطمة . كما يرى نُقَّاد آخرون أن المنار رمز للفرد الذى يعتبر إنساناً متميزاً وفى الوقت ذاته جزءاً من المتغير . ومن ناحية أخرى فإن المنار يمكن أن يرمز إلى العقل الثابت بين الأمواج، كما يمكن أن يرمز إلى المطلق .

والرواية فى مجموعها تُعبِّر عن الحياة والموت . وقد شاركت «فرجينيا وولف» نفسها فى الحوار الدائر حول الرواية عندما كتبت : «حاولت أن أضع فى الرواية

الأشياء العادية، الحياة والموت، لكن المركز هو شخصية الأب الذى يجلس فى القارب ويقول : نحن جميعاً هالكون لا محالة .. بينما يسحق تحت قدميه سمكة من أسماك الماكريل».

رواية : أورلاندو :

التى تنتمى للفنتازيا التاريخية وتتناول التقمُّص والاستنساخ، حيث البطل الذكورى الذى سرعان ما يتحوَّل إلى امرأة !

نشرت الرواية فى عام 1928، وهى رواية تنتمى للفنتازيا التاريخية وتتناول التقمُّص والاستنساخ، النظرية الأكثر شيوعا خلال المرحلة التى عاصرتها «فرجينيا وولف». وهى رواية رمزية أيضًا ابتدعتها الأديبة، حيث هذا البطل الذكورى الذى سرعان ما يتحوَّل إلى امرأة رغم كونه هجيناً يجمع بين خصائص الذكورة والأنوثة فى محاولة للتخلص من وطأة الزمان والمكان والسعى لإبراز التنوُّع فى الحياة البشرية، فالأنا هنا دائمة الوجود خلال محاولة «أورلاندو» الإجابة عن سؤال : من أنا؟ قطعة من أوراق أو شظايا يصعب جمعها ؟

عندما بدأت «فرجينيا وولف» بكتابة «أورلاندو» فى رسالة بعثت بها إلى صديقتها «فيتا ساكفيلد وست» بتاريخ 27 أكتوبر 1927 كتبت تقول : «أمس، صباحاً، كنت فى حالة من اليأس الشديد، إذ لم يكن باستطاعتى أن أستأصل كلمة واحدة من جوارحى، وفى النهاية تركت رأسى يسقط بين يدى، وغمست قلمى فى المحبرة، وبطريقة تكاد تكون آلية كتبت على الورقة البيضاء هذه الكلمات «أورلاندو»، سيرة .. وحالما انتهيت من ذلك غمرنى الفرح وامتلأ رأسى بالأفكار» .

استوحت الأديبة موضوعها من شخصية «فيتا ساكفيلد» صديقتها الحميمة التى جسَّدت «أورلاندو» بطلة الرواية، وهى ملامح «فيتا» تغطى وجه هذا البطل الخنثوى الذى عاش ثلاثة قرون ونيف، وتمتع بثروة من الأحاسيس والمشاعر والأفكار سمحت للأديبة بتصوير تموجات الحياة مع «الأنا» وظهور عنصر الزمن بشكل نسبى ومتبدل، رغم شاعرية أسلوبها التى لا تضاهى فى رواية «الطريق إلى المنار» إلاَّ أن رائعتها

«أورلاندو» تُشكِّل محطة أساسية على الطريق الذى سارت عليه «فرجينيا» خلال بحثها عن شكل جديد وجرىء للفن الروائى .

تجرى أحداث الرواية فى نهاية القرن السادس عشر داخل قصر إنجليزى شامخ حيث يعيش الفارس «أورلاندو» وهو ينحدر من أسرة نبيلة يعشق هذا الفارس الشعر والطبيعة، تستدعيه إلى بلاطها الملكة «إليزابيث» التى أُعجبت بوسامته لتغرقه بعطفها واهتمامها وأعلى المراتب .. يتجوَّل فى ردهات البلاط مُحاطاً باحترام وحب الجميع حتى بعد وفاة الملكة . ثم يأمر الملك «جاك» بتشييد معرض ضخم فوق جليد نهر التايمز . ثم يتحوَّل إلى امرأة باسم «أورلاندة» فتفقد خلال تلك المرحلة أوهامها وطموحاتها لتختلط بالمجتمع الذى أفرزه بلاط الملكة «آن» هناك . تلتقى «أورلاندة» برجالات الأدب والسياسة مع اعتناق الأدباء للمبالغة والتفخيم فى كتاباتهم مع وصول «آل ستيوارت» إلى الحكم . تشعر «أورلاندة» بالاشمئزاز من أفكار القرن التاسع عشر فتندفع الحسناء التى لم تعد فى ريعان الشباب للزواج من «مارما» دوق شلمردين البحار المغوار . ثم تنهى العروس كتابة قصيدة «السنديان» التى تطبع وتنشر وتلقى رواجاً كبيراً . يتابع الزمن دورته مع ظهور السيارة والكهرباء وانحسار الرخاء الفيكتورى فى سماء جزيرة الضباب لتصبح «أورلاندة» امرأة العصر الحديث تقود سيارتها وقد حصلت على جائزة أدبية عملت على إرضاء غرورها ليس إلاَّ . وهكذا تستشف الروائية من خلال أعمالها الأدبية التحوُّلات الطارئة على المجتمع البريطانى خلال ثلاثة قرون على هامش تحرير المرأة ومساواتها للرجل خلال الحرب العالمية الأولى ونزولها إلى ساحة الجهاد .

رواية : بين الفصول :

تصور التاريخ الإنسانى، بشكل مُصغر، من خلال عرض مسرحى يُمثل فى بيت ريفى .

صدرت رواية «بين الفصول» Between the Acts فى عام 1930م . بطلة الرواية هى السيدة «لا تروب» . والأحداث تدور فى منزل ريفى حيث يتقرَّر تمثيل عرض مسرحى فى باحته . وهى فى الواقع تعرض فى صورة مصغرة، أمام خلفية يوم

من أيام الصيف فى الريف الإنجليزى قبل الحرب تماماً، كل ملحمة التاريخ الإنسانى، السلالى والقومى على حدٍ سواء .

وفى الفصل الأخير تظل السيدة «لا تروب» وحيدة بعد أن تنتهى المسرحية وينصرف الجمهور وتكتب «فرجينيا وولف» : «استندت لاتروب إلى شجرة. كانت مشلولة وقوتها فارقتها، ومن جبينها انبثقت حبات عرق، الوهم فشل.. «إنَّه الموت» همست السيدة لاتروب» !!

رواية : الأمواج :

تصور الروائية حياة ستة أشخاص من الطفولة حتى الكهولة عَبْر مونولوج داخلى، بلغة شعرية مؤثرة .

صدرت الرواية عام 1931م . وهى تعتبر من أهم أعمال (فرجينيا وولف) نظراً لما تتضمنه من مفاهيم فلسفية . وقد تخلت الكاتبة عن الرواية البانورامية لتكتب هذه الرواية الوصفية، من هنا كان استخدامها على صعيد التقنية للمونولوج الداخلى الذى يكشف عن أعماق النفس البشرية .

فى الرواية تتشابه سيرتها وتتداخل مواقفها، كما يصعب فهم لغتها متقاربة الدلالات، ربما لأنْ الحياة ليست سوى نسيج بين الشظايا المتسلسلة، إذ تُشيد «فرجينيا» بنياناً روائيا يبتعد عن المنطق المُتخيَّل ليلجأ إلى تفكيك انطباعات القارئ الأولية .

ومقياس الزمن فى الرواية تسع وقفات رمزية تُشير إلى مسار الشمس فوق البحر منذ الفجر حتى الليل، ويرى النُّقَّاد أن هذه الفقرات الوصفية تعتبر من أجمل ما كُتب فى اللغة الإنجليزية .

وهناك من النُّقَّاد مَن اعتبر الرواية تحفة أسلوبية، حتى أن أحدهم أطلق عليها «قصيدة نثرية»، فهناك لغة شعرية مؤثرة، فهى تردد بين الحين والآخر كلمة مثل «بؤرة الضوء» كأنها تبحث عن الضوء لأنَّها غارقة فى ظلمة اللاوعى تبحث عن اليقين والحقيقة .

تدور أفكار الرواية حول أمواج التجارب وهى تتكسر فوق ست شخصيات تتابعهم المؤلفة فى مراحل حياتهم المختلفة : من الطفولة إلى النضج وحتى الشيخوخة . وهذه

الشخصيات الست تتكوَّن من : «برنارد» الانبساطى الاجتماعى الذى حاول دائماً أن يُعبِّر عن جوهر الحياة فى كلمات وعبارات . و «نيفل» وهو عكسه لأنَّه انطوائى رقيق سريع الانفعال صعب الإرضاء يتوجس من الصداقات والعلاقات . ثم هناك «لوبين» ابن مدير أحد البنوك وهو استرالى الجنسية يُعانى من إحساس النقص . ومع هؤلاء الرجال الثلاثة ثلاث فتيات هن «سوزان» وهى شهوانية تحب التملك، و «جينى» وهى شيطانة صغيرة عنيدة مراوغة لا تطيع الأوامر، وأخيراً «رودا» خجولة تحب العزلة ولا تستطيع أن تكيف نفسها. وتترك لنا «فرجينيا وولف» فى النهاية «برنارد» وحيداً يلخص لنا ما لقيه فى حياته .

وقد ترجمت هذه الرواية إلى اللغة العربية حيث ترجمها «مراد الزمر» .

سمات ومزايا أسلوبها الإبداعى :

أُطلق عليها مؤخراً لقب «روائية العيون» على اعتبار أنها جمعت بين الملاحظة والنظرة إلى الحياة بعين صحافية، فهى لا تتكلم إلاَّ عمَّاتشاهده دون التوقف عند العموميات . ولقد أثارت أعمالها سوء فهم فى الأوساط الأدبية لانطلاقها من ملاحظة كل ما هو مباشر وفورى ويحدث للتو، من هنا جاءت شاعريتها الفنية المناهضة للواقعية الفيكتورية، فهى تُصرِّح فى مذكراتها أنَّها تؤمن بخلود الشعراء، فصوت كل منهم ينتقل من جيل إلى آخر .

والرواية عند «فرجينيا وولف» هى رواية مشاعر وأحاسيس وانطباعات فردية فى المقام الأول، ولهذا أُطلق عليها اسم روائية «المشاعر الذاتية» .

ولقد شقت روايات «فرجينيا» الطريق أمام نوع أدبى أكثر مرونة قَلَب المفاهيم التقليدية المتعارف عليها للرواية كما اعتنقها «جالسورثى» و «أرنولد بينت»، ألم تتقلص الحبكة عند «فرجينيا» حتى كادت أن تختفى مع الشخصيات ؟ ألم تعد الحياة سلسلة من الفوانيس المنتشرة على درب القارىء إنها هالة ضوئية تُحيط به منذ ولادة وعيه وضميره حتى الموت . فحين تجعل الروائية من العالم اللامرئى - ذلك الذى يسكن أعماق اللاشعور (الغرفة المظلمة عند فرويد) جوهر رواياتها تصل إلى منتهى الشاعرية .

إن أسلوبها عمد إلى تصاعد الوعى الذهنى لشخوص رواياتها فى تزامن مع التصاعد السردى للحدث . الكتل الزمنية تتراص متوازية فى الذاكرة وبالتالى فى الرواية الدرامية . المشاهد غير المكتملة تتقاطع وتشتبك لتخلق لوحة أرحب . كما أن التنوع الأسلوبى للقصّ يُذكِّر القارىء دائماً أن خطاً شعرياً أو خيالياً متورط فى العمل . إن تبنى تيار الوعى فى السرد القصصى والذى يتراوح بين التفاصيل الحياتية العادية وبين الإسهاب الغنائى والخبرة العالية بطرائق تُشكل المشهد، هما من أهم أدوات «فرجينيا وولف» .

ولعلّ من أهم جوانب عمل «فرجينيا وولف» اهتمامها بمشكلة الزمن فى الرواية، إذ تحاول نقلْ تأثير الزمن بأبعاده الثلاثة : اللَّحظات والساعات، والرحلة من الطفولة إلى الشيخوخة، ثم الزمن التاريخى أو الزمن فى علاقته بأحداث الوطن والعالم أجمع، أى أنَّها تتناول زمن الساعة، والزمن بالنسبة للفرد، ثم الزمن بالنسبة للعالم المحيط به أو فى «الحياة بوجه عام» كما كانت «فرجينيا» تُعبِّر عنه .

كما اشتهرت «فرجينيا وولف» باستدعاءاتها الشعرية التى تستخلصها من ميكانيزم التفكير والشعور البشرى كانت مثل «مارسيل بروست»، و «جيمس جويس» قادرة بامتياز على استحضار كافة التفاصيل الواقعية والحسية من الحياة اليومية .

يلاحظ أنَّها كانت تركز فى أغلب رواياتها حول المياه العنيفة . المياه عند «فرجينيا» هى رمز التحول والاستمرار، حيث المد والجزر والأمواج الصاخبة تمثل حركة الزمن وتوالى الحياة، والموت، الفرح والحزن، الحركة والسكون . لقد كان ولعها بالماء غريباً كأنَّها ترى فيه دعوة الرحيل، وفى الماء أيامها متحدة بما بدا لها منبع الحياة .

فرجينيا وولف .. فى ميزان النقد الأدبى :

يرى البعض أن بعض أعمالها الروائية افتقدت للتماسك البنيوى والكتابة المتجانسة مع إكثارها من اللاانطباعات الهاربة من عالم اللاشعور حيث سجلتها «فرجينيا وولف» بعصبية فطرية لا تمت للمنطق والتحليل بصلةٍ .

وبعض المعارضين عابوا عليها إغراقها فى المشاعر الذاتية بحيث انفصلت عن المجتمع

وانغلقت على الذات من ناحية، واتخاذ التجديد فى استخدام الألفاظ والأسلوب والبناء الفنى هدفاً فى حد ذاته من ناحيةٍ أخرى .

بينما ذهب البعض الآخر من النُّقَّاد إلى أن «فرجينيا» التى عابت على الروائيين الذين أسمتهم بالماديين وإغراقهم فى الاهتمام بالواقع والمظاهر الخارجية للحياة، قد أخطأت بدورها فى إغراقها فى الاهتمام بالعالم الداخلى، عالم الأحاسيس الذاتية وانصرفت عن العالم الخارجى أو المجتمع وعلاقة الذات به، فجاءت رؤيتها للحياة هشة تفتقر إلى الاتساع والعمق .

«فرجينيا وولف» .. أهميتها ومكانتها :

وصفوها بأنَّها : أهم الشخصيات الأدبية الحداثية فى القرن العشرين الميلادى، وبأنَّها: رائدة تيار الوعى فى الرواية الوصفية . ووضعها بعض النُّقَّاد على مفترق بين الأديبين البريطانيين الكبيرين «جورج أورويل» و «جيمس جويس»، فهى عندما عمدت إلى تغيير شكل الكتابة الروائية كانت تسير على نهج «جويس»، وعندما تناولت النازية والحرب العالمية فهذا يذكرنا بأسلوب «أورويل» .

ووصفت أيضاً بأنَّها الأديبة الأكثر سطوة فى بريطانيا القرن العشرين، حيث أخافت بمكانتها الكثير من أدباء عصرها، ومارست هيمنتها على الكثير من الأقلام الجديدة .

كما أعتُبرت أهم المجددين فى اللغة الإنجليزية، خاصة إسهامها فى تشكيل تيار الوعى مع كل من «هنرى جيمس» و «جيمس جويس» حيث تلعب الدوافع النفسية العميقة والحوافز العاطفية والسرد المختلط مع مفهوم تحطيم الزمن، وعلى حد تعبير «فورستر» : «إنَّها دفعت باللغة الإنجليزية بعيداً عن الظلمة» .

وتكمن قوة «فرجينيا وولف» فى ثراء لغتها وشاعريتها، فرواياتها خالية تقريباً من الأحداث ومن الحبكة التقليدية، لكنَّها تعتمد على تداعيات شخوص الرواية وذاكرتهم.

«فرجينيا وولف» .. وقضايا المرأة :

علقت المرارة بروح «فرجينيا وولف» استياءً من عدم المساواة فى معاملة الإناث

مثلما يُعامل الذكور، واحتجاجاً على ما تنطوى عليه تلك التفرقة من تدنى نظرة المجتمع لفكر المرأة وجدارتها الذهنية فى التعلُّم . وكذا ساءها استكانة المرأة وقبولها الأمر على هذا النحو السلبى . عبر مشروعها الأدبى، ظهرت ملامح هذا الرفض فى مقالات كثيرة رصدت خلالها تباين التوجهات الاجتماعية نحو كل من المرأة والرجل، أهمها مجموعة مقالات بعنوان «غرفة تخص المرء وحده» عام 1929م، تحكى فيها كيف كانت تُحذَّر من الخروج وتُمنع من دخول مكتبة الجامعة لأنَّها امرأة . تتناول تلك المقالة تاريخ مشروع أدبى كتبته امرأة والمبرر الإنسانى الذى يحتم حصول الأديبة على المناخ ذاته المُتاح لأديب رجل مثل غرفة مستقلة توفر خصوصية المبدع، وأيضاً حقها فى شيءٍ من الاستقلال الاقتصادى، حيث لم يكن مقبولاً فى عصر «فرجينيا» أن تحصل المرأة على مالٍ خاص، أو حتى تختار مصيرها باستقلالٍ كالرجل .

دراسات وروايات ومسرحيات وأفلام سينمائية، جميعها استلهمت حياة وإبداع «فرجينيا وولف» :

تناول عدد كبير من الكُتَّاب والنُّقَّاد حياة وإبداع «فرجينيا وولف» بالتحليل والتفسير على غرار : «الانطباعات فى روايات وولف» للألمانى «فايدنر» عام 1943 م، و «فرجينيا وولف كروائية» للأديب البريطانى «هابلى» عام 1945م، و «فلسفة فرجينيا وولف» للفرنسى «شاستان» عام 1951 م .

وفى عام 1994 م استثمرت «إليين أتكينس» خطابات «فرجينيا وولف» وصديقتها «فيتاسا كفيلد» ، فى خلق نصّ درامى مسرحى بعنوان «فيتا وفرجينيا» بطولة «أتكينس»، و «فانيسا ريد جريف» .

وعندما كتب «إدوارد ألبى» مسرحيته الشهيرة «مَنْ يخاف فرجينيا وولف» لم يكن يتصوَّر أن عنوان مسرحيته سيكون من أهم عوامل نجاح مسرحيته، وسيدفع بالكثيرين للبحث عن سيرة هذه السيدة التى عاشت بنصف عقل لتبدع للإنسانية أرق ما كُتب فى الأدب العالمى، ورُغم أن «ألبى» لم يتطرَّق لحياة «فرجينيا» فى مسرحيته بل مس حالة من حالات الجنون الناتجة عن إدمان الكحول بين رجل وامرأة تدفعهما إلى لحظة نادرة من الخيال فيختلق كل منهما أنواعاً من الأكاذيب والقصص التى لا تمت للواقع بصلة،

وهذا العمل المسرحى قدّمته السينما العالمية فى فيلم من بطولة «إليزابيث تايلور»، و «ريتشارد بيرتون» . وحصلت «تايلور» على جائزة أوسكار، وأصبحت عبارة «مَنْ يخاف فرجينيا وولف» من أشهر العبارات الفنية المتداولة فيما بعد .

وفى عام 2002م ظهرت رواية «الساعات» The Hours للمؤلِّف «مايكل كننجام» Michael Cunningham الحائزة على جائزة «بوليتزر» أكبر الجوائز الأدبية فى أمريكا . حيث تناولت آخر يوم فى حياة «فرجينيا وولف» . وقد تحوَّلت الرواية إلى فيلم سينمائى فاز بجائزة أوسكار، حيث جسدَّدت «نيكول كيدمان» الممثلة الأمريكية الجميلة دور «فرجينيا» .

من عمق النهر .. تصعد روح «فرجينيا وولف»

فى صباح يوم الجمعة 28 مارس من عام 1941 م، وضعت «فرجينيا وولف» أحجاراً فى جيب فستانها ثم ألقت بنفسها فى نهر «أووز» Ouse بالقرب من منزلها فى «سسكس» .. تاركة رسالة لزوجها، تقول فيها : «أيها العزيز جدًّا، أنا واثقة من أننى سأُجن من جديد، فقد بدأت أسمع أصواتاً، ولم يعد بوسعى التركيز . وفقدت قدرتى على المقاومة . لذا علىَّ أن أفعل الفعلة التى أرى أنَّها الأفضل . لقد منحتنى السعادة المحتملة . وكنت بالنسبة لى كل شىء» ..

أكتُشفت قبعتها وعصاها فى المرج حيث كانت تتنزه دائماً . أمَّا جثتها لم تُكتشف إلاَّ بعد أسابيع !!

وأثبت القاضى فى التحقيقات أنَّها : انتحرت !! . «ماتت بموت الماء» هكذا قال «ت. س إليوت» فى قصيدة حزينة .

ومن عمق النهر، فارقت «فرجينيا وولف» الحياة .. عن عُمر يناهز 59 عاماً!!